محنة المثقف الديني*

■■ الشيخ حسين صالح آل الشيخ**

رسالة الإعلام

الإعلام رسالة إنسانية قبل أن تكون رسالة دينية وشرعية في هذه الحياة، ويخطئ من يتصور أنّ الإعلام ليس لديه هدف ورسالة واضحة المعالم، وهذا ينطبق على أيّ إعلام معاصر بشتى مشاربه ومذاهبه؛ لأنّ هذا الإعلام يحمل رسالة مبدئية، بغض النظر عن شكل هذه الرسالة وإيديولوجيتها؛ ولذا يخطئ من يتصور أن الإعلام شيء مفتوح غير مقيد بحدود إيديولوجية.

ويكفي أن تكون رسالة الإعلام إنسانية؛ لتجعله يهتم بحقوق الإنسان والمجتمع، ويلتفت إلى قيم العدل والحق والحرية، وهل هناك أفضل من هذه القيم الإنسانية، التي هي صمام أمان لأيّ حياة ينشدها أيّ إنسان في هذا الكون؟، ولكن المؤسف أن يكون ظاهر الإعلام هذه القيم، وباطنه الانحلال والتجديف والتحريف لقيم السماء بشكل عام.

* مقال لرئيس التحرير السابق لم ينشر.

** عالم دين، وباحث، يعد من ابرز تلامذة واساتذة حوزة القائم العلمية، رئس تحرير البصائر لمدة تزيد على الأربع سنوات، نشر خلالها العديد من البحوث الفكرية والثقافية، صدر له: الأندلس الضائع: أضواء على مسلمي الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا والهند، الصادر عام ١٤١٥هـ. وشيء من الماضي، مجموعة قصصية. الصادر عام ١٤١٥هـ عن دار النخيل. وافته المنية وهو في رحلة الحج عام ١٤١٨هـ.

للوقوف على سيرته فكره راجع كتاب (أفئدة وجراح.. الشيخ حسين آل الشيخ: وميض حياة وعزيف رحيل) لمؤلفه محمد أمين أبو المكارم، الصادر عن دار المكارم لإحياء التراث. عام ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

وهذا ما يجعل من حامل الرسالة متصفاً بحمله لمبدأ معين، وسائراً على خطا منهج.

ولا يمكن لأيّ مؤسسة إعلامية أن تسير دون منهج أو دون أن تعتنق مبدأ، بغض النظر عن هذا المنهج أو المبدأ، كما قدمنا؛ لأنّ المبادئ التي يعتنقها الإنسان في هذا الزمن، تنعكس على قلمه وإعلامه بشكل لا إرادي شاء أم أبى، وحتى الذين يؤمنون بالعبثية، يمكن تصنيفهم على مبدأ العبثية كما يمكن استنتاجه.

والإعلام الإسلامي يحمل رسالة وهدفاً: الرسالة تتضمن طرح مفاهيمه الدينية، ومقاصده الشرعية والاجتماعية والعامة، حسب أصول الدين مع مراعاة الجانب الاجتهادي وعدم العيش في زوايا التخلف والنظرة الضيقة، بحيث نواكب العصر والواقع الذي نعيشه. والهدف يعني أن يتغير المجتمع نحو الأفضل من خلال قيم الإسلام ورسالته الحقة.

ولكنّ المشكلة التي تبرز في أحايين كثيرة لدى إعلاميات إسلامية كثيرة اليوم هو الاهتمام بطرح الشعار الإسلامي، وغضّ النظر عن جوهر الإسلام، ومنهج أهل البيت عليهم السلام وقيمه، وذلك خوفاً من أن يوصموا بالتخلف أو الطائفية؛ بحيث يجعلهم بعيدين عن الموضوعية وتحري الدقة في نظر الآخرين.

ولذا تجد البعض يتصوّر أنّ الاهتمام بمنهج الإسلام هو مخالفة للتعددية الثقافية في هذا الزمن المرّ، فترى هذه الإعلاميات تحاول جهدها أن تطرح مفاهيم وقيم الغير وتدافع عنها بشدة، وكأنّها تعتنق هذه القيم والأفكار، وكلّ ذلك لتؤكد اعترافها بالآخر، في حين بهذا المنهج الانتقائي تبتعد عن معاني الإسلام السامية ورسالته، وإن كان الإسلام لا يرفض الآخر، ويقبل التحاور معه على أسس قرآنية وشرعية.

وتحت شعار المحافظة على التعددية تبدأ الأقلام المسمومة بنفث سمِّها في هذه الإعلاميات، وفي ظلّ الخوف من أن توصم بالطائفية تبتعد عن منهج أهل البيت عليهم السلام، وتعاليمه القيمة، والأنكى من ذلك أن تدعي هذه الإعلاميات المحافظة على الإسلام والمذهب، بهذا المنهج الانتقائي الخاطئ.

ومحنة المثقف الديني تكمن في جانبين:

أولاً: عوائق تقف أمامه، ولا يستطيع في كثير من الأحيان أن يتخلص منها، لكي يقوم بتأدية دوره الحقيقي، وبقناعته من دون أن يواجه هذه العوائق، ويحطم هذه القيود.

وهذه العوائق من قبيل: السلطة أنى كانت، وامتزاج السياسي بالثقافي، والمثقف بين الحاجة والواقع، ومسؤوليته الشرعية، وبين أن يسلك المثقف طريق الانفتاح أو الانغلاق، كلّ هذه عوائق ليست بقليلة.

ثانياً: مشاكل الإعلام الديني، والتي تساهم في إعاقة المثقف الديني، وذلك لأنّها تنعكس سلباً على أدائه، مثل المال، وتقنية الخطاب الديني، والحصار من قبل الآخرين لهذا

الإعلام، ومشكلة الإثارة في الإعلام المعاصر، والتنوع المطلوب.

وفي الأخير قمنا بطرح مقدمات المشروع الثقافي، وهو ما يمثل الطموح بالنسبة لأيّ إعلام إسلامي، مع قناعتنا الأكيدة أنّ هذه المقدمات ليست حقائق مطلقة، بل يمكن أن تضاف إليها أفكار أخرى، ولقد تناولنا العوائق والمشاكل في بعد واحد، وذلك لأنها تشكل عائقاً رئيساً أمام المثقف الديني، ويمكن أن يشترك مع المثقف الآخر في بعض هذه العوائق والمشاكل.

عوائق المثقف الديني

١ـ السلطة:

السلطة هي إحدى العوائق الرئيسة أمام أيّ مثقف، وبالخصوص المثقف الديني، الذي توصمه السلطة بالإرهاب تارة، وأخرى بالطائفية وإثارة القلاقل، وتفكيك الوحدة الوطنية والمجتمعية، وبالتالي تعامله السلطة بوصفه عدواً محتملاً ورئيسياً، ولذا فإنها تقف عائقاً أمامه، وتحول دون تأديته لرسالته الإعلامية ومسؤوليته الشرعية، وهذا يعني أنّها تسعى دوماً لمصادرة حريته بشكل واضح.

وحرية المثقف إشكالية معقدة في إعلامنا العربي، وقد يستغرق الأمر سنوات طويلة، قبل أن تتحقق للمثقف حرية كاملة، غير محددة بحدود أو بخطوط حمراء، يتوقف أمامها، ولا يستطيع الحراك، بسبب السلطة أنى كانت، وأين توجهت وتموقعت؟

ولا غرابة إذا صحت مقولة أحد الأدباء العرب، (إن هامش الحرية المفتوح أمام كلّ المثقفين العرب لا يكفي مثقفاً واحداً)، فالسلطة لا تعطي الفرصة لأيّ مثقف ليبدي رأيه في حوادث ساخنة تهم الشأن العام.

وفي وسط الأطر الأخرى ـ سواء كانت حزبية أو فئوية أو حركية ـ نجد المعاناة ذاتها، حيث يعيش المثقف الأزمة ذاتها، بفارق أنّ السلطة تمتلك أدوات أكثر فاعلية من تلك الأطر والمؤسسات.

ومشكلة حرية المثقف تقع في بعدين: من جانب السلطة التي تريد دائماً إسكات الأصوات المزعجة في إطار الثقافة والسياسة، ومن جهة المثقف الذي يحاول الابتعاد والفرار من مشاكل قاسية نتيجة ممارسته لحريته في ظلّ أجواء القمع، وفي حال تمرده على الواقع فإنّ ذلك يستتبع أن يعيش أزمة أمنية لا تنتهي، ويشمل ذلك حياته بكلّ أبعادها، فلذلك يتخلى عن حريته، مقابل أن يبقى على قيد الحياة، ويمارس التفكير بصوت منخفض.

وإذا كنا نطالب الساسة وأصحاب القرار في وطننا الإسلامي بفتح الطريق لحرية المثقف، فإنّ ذلك لا يعني أن يبقى المثقف فاقداً لأهم مكوناته الثقافية وهي الجرأة للوقوف مع الحق، والتمرد ضد الباطل المترسِّخ في مجتمعاتنا، لأنّ الخضوع والاستكانة يفقدان المثقف دوره الحقيقي.

ولا يعني ذلك أن يتمرد المثقف على سلطة الدين الواضحة، والمنطق السليم، فالمثقف

يتحرك عبر قناعاته وليس عبر أدوات الضغط أو التهديد، أو الأهواء والمزاج.

٢ـ امتزاج السياسي بالثقافي:

إشكالية السياسي/ الثقافي جدلية عتيدة في وطننا الإسلامي ولا أتصور أن يكون لها نهاية قريبة في المستقبل المنظور؛ لأنّ اختلاف أهداف كلّ واحد منهما يساهم في إبقاء هذه الإشكالية ويعقّدها، فالسياسي عينه على السلطة، والمثقف هدفه الإصلاح والتغيير، ولذلك فإنّهما يختلفان بشكل دائم.

الساسة لا يخسرون وإذا فشلوا فهم تجار ناجحون يشترون ويبيعون في «البازار» السياسي، ولذا ولا غرابة أن نشاهد أن التاجر والفلاح والتقني يخسر في حياته المعيشية، باستثناء السياسي الذي إذا خسر في السياسة فإنّ الناس يكونون هم كبش الفداء، وهو لا يخسر أيّ شيء.

وذلك لأنّ لديهم استعداداً لتغيير المواقف والجبهات وفي بعض الأحيان لديهم القدرة على تزوير التاريخ، كلّ ذلك من أجل الحصول على مكاسب أكثر.

أما المثقفون ـ دعاة الإصلاح والتغيير ـ فالخسارة لا تشكل لهم في منظورهم الفكري أيّ صدمة تدفعهم نحو تبديل مفاهيمهم الثابتة وبالخصوص إذا كانت ثقافتهم قائمة على أسس متينة مستمدة من تعاليم الإسلام، ومنهج أهل البيت عليهم السلام.

وإذا كان المثقف ينأى عن استجداء أصحاب القوة واستخدام الوسائل غير المشروعة، فإنّ السياسي مؤهل أكثر من غيره لخوض الحروب الخسيسة بالوكالة والنيابة والمباشرة، فهو يتذرّع بمنطق القوة ويتمترس تحت شعار المصلحة الوطنية وخدمة الأمة لكي يحقق أغراضه المختلفة، التي تصبّ في موقع الذات فقط.

السياسي سواء كان في المعارضة أو السلطة فهو يدافع عن المصالح والمنافع، فإذا كان في المعارضة فلا يتذكر إلا عيوب السلطة وسلبياتها، وإذا أكل من قصعة السلطة، وأصبح من أتباع البلاط، راح يدبّج المقالات لمدح السلطان (عدوه السابق)، بشكل يثير العجب.

أما المثقف فهو يدافع عن قناعاته وأفكاره التي تصبّ في الدفاع عن كرامة الأمة وهويتها الحضارية، سواء كان معارضاً أو في موقف الحياد، وإن كان طبعه الدائم هو التمرّد على كلّ سلطة، ولا يمدح أيّ سلطة، وإذا فعل شيئاً من هذا القبيل، فإنّه بالتأكيد يسعى لإحقاق الحق، وإلا سوف يخرج من خانة المثقفين إلى خانة الساسة. وضمان ذلك رسالة المثقف التي تفرض عليه قيوداً كثيرة أهمها الالتزام الأخلاقي والتضحية بالذات في سبيل الآخر.

ولذا تلاحظ الفرق بين الساسة والمثقفين، فبين المثقف المسؤول والمثقف السلطوي بون شاسع لا يمكن نسيانه أو نكرانه، ولكنّ الأمر المهم في هذه المفارقة يكمن في قدرتنا على تمييز صفتي المسؤول والسلطوي، بحيث لا يستطيع السلطوي خداعنا تحت ستار المسؤولية، ولا

يضيع المسؤول بسبب عدم تمييزنا لما يطرحه ويؤيده من أفكار وأطروحات ثقافية.

المثقف السلطوي هو الوجه الآخر للسياسي الانتهازي، وأغلب هؤلاء المثقفين يسكنهم هاجس السلطة بكلّ ما تعني الكلمة، ومعظمهم كانوا مشاريع سياسية فاشلة غير صالحة للأمة، وتحولوا بفعل الفشل الذريع الذي لحق بهم، إلى مشاريع ثقافية تعبيراً عن رغبة ذاتية لا يمكن تجاوزها.

حيث يسعى هذا النوع الممزوج بالثقافة/ السياسة الانتهازية، إلى احتلال الواجهات بوصفه هدفاً أساسياً، وعلى المذبح يقدم كلّ ما لديه للآخر القوي خدمةً ليس لمن يدعي تمثيله، بل من أجل الوصول إلى درجة التمثيل، وهذا هو الخطر الأكبر الذي يهدد الثقافة من هؤلاء.

في حين يُقصى دور المثقف المسؤول، ويحجَّم كي لا يستطيع أن يقدم موقفه الفاعل والمسؤول، والقادر على توجيه الساحة، نحو الجادة الصحيحة، ولكنّ ذلك لا ينفي المسؤولية الكاملة عن المثقف، في محاولته للتخلص من هذا الطوق المضروب حوله، وهنا يكمن خطر امتزاج السياسي بالثقافي، حيث يضيع المثقف المسؤول بسبب السياسي الانتهازي المتسلل إلى الساحة بعناوين ثقافية، والمطلوب بالتأكيد عكس ما يحدث.

٣ـ الحاجة والواقع:

يعيش المثقف أزمة حادة في هذا المشكل، فهو يتأرجح بين حاجته الاقتصادية والمعيشية، وبين واقع المجتمع الذي يريد أن ينتقده لكي ينتشله من موقع التخلف، وبهذا يصبح على عاتق المثقف الديني مسؤولية شرعية وإنسانية ليست بقليلة، في حين أنه في الوقت ذاته يريد أن يعيش على الأقل في مستوًى معيشي متوسط، وليس في رفاهية رفيعة المستوى، ولكنّه قد لا يستطيع أن يحصل حتى على الحياة الاقتصادية بشكل متوسط، والسبب أنّ هناك حصاراً لا يخفى على المتتبع!

السبب أنَّ المثقف الديني متدين أو ملتزم بمنهج لا يحبِّذه أصحاب القرار في العالم اليوم، وبالتالي لا مجال له لكي يكتب أو يعبِّر عن رأيه، خوفاً من أن يخرق الحجب الخفية، وفضح المتنفذين والفاسدين، وتوعية المجتمع بأخطار الظلم، وتوجيههم نحو قيم الحرية والعدل والحياة الكريمة.

ولذا فإنّهم يحاربون وصول الإسلاميين إلى الإعلام العالمي، وإذا وُجد من يكتب فلابد أن يلتزم بشروط النشر التي يحددها أولئك المتنفذون، ومع ذلك يمنع أن يطرق الأبواب الخفية، والذات المقدسة لأولئك!!، ويكون تحت الرقابة الدقيقة من قبل أجهزة الأمن، وذلك لكي يتصيدوا أخطاءه، ومن ثم يحاسبوه عليها، وبالتالي فإنّه يعاني الأمرَّين.

ولذا لا عجب أن تشاهد الكثير من المثقفين الإسلاميين يتخلون عن التبشير بالإعلام

الإسلامي، سواء بعدم التبني للفكر ونشره، أو عبر الانسحاب من الساحة بالتخلي عن المشاركة في إدارة الإعلام الإسلامي، والسبب هو الحصار، ولا يخفى أنّ أغلب الوسائل الإعلامية في العالم وبالخصوص العالم العربي تحت سيطرة السلطة أو فئات حزبية، علمانية أو يسارية التوجه، وهذه لا يروقها الاتجاه الديني.

وبالرغم من أنّ هذا الحصار لا يعني أنّه حقّق فائدته، والشاهد على ذلك هو تواجد الإسلاميين في عواصم إعلامية عالمية، وهذا ما جعل الحصار عديم الجدوى، ولكن يبقى الحصار في العالم العربي، وبعض البلدان الإسلامية، وحتى في بعض الدول الغربية، حيث يحاولون إفقار المثقف الإسلامي، وإبعاده عن الساحة.

٤ـ المسؤولية/ الوعظ:

تبرز إشكالية مهمة اليوم في الوسط الإسلامي النخبوي وتتحدَّد في جدلية المثقف/ المسؤولية، حيث يتصوّر البعض أنّ دور المثقف الإسلامي يجب تطويره نحو موضوعية أكثر بحيث يتجاوز الإطار الوعظي المجرّد الذي سُجن فيه أثناء الفترة الزمنية الماضية؛ فاكتسبت الكتابات الإسلامية طابع التوجيه والوعظ أكثر مما حاولت التحاور مع الآخر، وفي بعض الأحيان سعت إلى إلغائه بدلاً من التفاهم معه.

ونتيجةً للون المؤدلج الذي طبع الخطاب الإسلامي تعرّض لحملات نقد عديدة وبعضها يمكن تصنيفه في جانب الصواب وليس في جبهة التآمر التي أضحت تُهماً تلصق بالباحثين في الفكر الإسلامي من خارج الدائرة.

وتحت شعار القطيعة والتواصل مع الآخر ترسَّخت هذه الإشكالية في ثنايا خطابنا الديني، فهل نكتب لأنفسنا، لكي نقرأ ما نكتبه؟! أم أننا نقوم بالتواصل مع ثقافة أخرى ونتحاور معها مع التأكيد على نفي الصراع بين الحضارات برغم اختلافها وتنوّعها؟ وهذه دعوة للاستفادة من هذا التنوع والاختلاف عبر التواصل لكي نستطيع صياغة خطاب إسلامي أكثر دقة وموضوعية ناتج عن الحوار مع الآخر وليس من القطيعة التي تحرمنا من الفوائد التي تكتنف ثقافة الآخر..

في حين يتغافل هؤلاء أن ليس هناك من يقف ضد التواصل مع الآخر إذا كان ذلك بحدود وضوابط بحيث يتحوّل هذا التقاطع إلى انفتاح رشيد ويواكب العصر الذي نعيشه، أما إذا تحوّل هذا التعاطي إلى تواصل مفتوح لا يقف أمامه حاجز أو ضابطة فإنّنا لا يمكن إزاءه إلا تصنيفه ضمن الاستلاب؛ لأنّه يفقدنا خصوصيتنا الذاتية، ولا فرق بينه وبين دعوات التغريب التي شهدها العالم الإسلامي في الثلاثينات من هذا القرن، ونعتقد ـ خلاف ما يحاول البعض ترويجه حول وعظية الخطاب ـ بأنّ للمثقف دوره الكبير في هداية الناس ووعظهم وإرشادهم، ونرى أنّ الإنسان هو المسؤول عن تاريخه وواقعه ومستقبله لأنّه

القادر على التغيير والتبديل بتحمله للمسؤولية، والمثقف يدخل ضمن هذا الإطار.

ومنطق الهداية والإرشاد هو الإطار المعرفي للإسلام، وهذا يتبين لنا من خلال القرآن الكريم الذي يعزِّز دور الهداية في أكثر من موقع حتى نجد أنّ الهداية هي المركز في هذا الكتاب المقدس..

- ﴿ هَذَا بَيَانٌ للنَّاس وَهُدًى وَمَوْعظَةٌ للْمُتَّقين ﴾[1].
- ﴿ هَذَا بَصَائرُ منْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لقَوْم يُؤْمنُونَ ﴾[2].
- ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكتَابَ تبْيَانًا لكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى للْمُسْلمين ﴾[3].

إنّ الهدى الإلهي الذي نلقاه في نداء الوحي هو الذي يفرض المسؤولية ويجعل من صبغ المثقف برداء المسؤولية والعطاء شيئاً لا مناص منه، ومهما حاول البعض التخلي عن ذلك وتبرير هذا المنحى كي يحلِّق بعيداً في عالم الأفكار مع الآخرين فإنّ ذلك لن يغيّر من الحقيقة شيئاً.

٥ـ الانفتاح والانغلاق:

الانفتاح والانغلاق من الإشكاليات الكبرى وهي إحدى العوائق أمام المثقف الديني، فهل يحقّ له الانفتاح على ثقافات الآخر الكوني، أم ينغلق على ذاته، مكتفياً بثقافته الإسلامية الغنية، والتي تشمل القرآن والسنة الشريفة.

وبلا شك إنّ للانغلاق سلبيات، وللانفتاح سلبيات أكثر، الانغلاق يؤدي إلى الجهل والتخلف، والانفتاح قد يؤدي للاستلاب و«بين الاستلاب والانفتاح فرق كبير لا يمكننا تغافله أو عدم مشاهدته؛ لأنّه شيء منظور لكلّ متأمل في الظاهرتين، ومهما حاول البعض خلطهما سوف يكتشف المتتبّع بدقة حقيقة هذا الفرق فوضوحهما يقصِّر مسافة البحث الطويل عند البعض الأخر لاكتشاف حقيقة هذا الفرق وهذا المفهوم.

فالاستلاب يعني الانهزام أمام الآخر ومحاكاته وتقليده والتماهي معه على حساب الذات، تحت ذرائع شتى تبرِّر هذا النزوح، بينما الانفتاح يعني أمراً آخر بعيداً من الانسلاخ والتخلي عن الذات والأنا مقابل الآخر، حيث ينحو تجاه الاستفادة من معطيات الجمعي ومكتسبات الآخر الموضوعية مع الحفاظ على الخصوصية المحلية والثوابت الدينية التي لا يمكن التنازل عنها لصالح الكونية المستهدفة استلابنا وسلخنا من الجذور.

وقد تكون إشكالية الانفتاح/ الاستلاب من الإشكاليات المزمنة في تاريخ الفكر العربي باعتبارها صعبة المعالجة لدى نخبة تعيش حالة الانبهار بالآخر، وفي ذات الوقت لا تبحث عن ذاتها وخصوصيتها في ظلّ تدفق الأفكار التي نشهدها طوال التاريخ.

فإذا كانت تيارات التغريب الثلاثة (العلماني - الليبرالي - الانتقائي)، دعت إلى مركزية الغرب، وراحت تعتبرها الكوني المثالي والنموذج لتحديث البنى الفكرية والاجتماعية

في بلادنا، فإنّ التيارات اليسارية التي تبنّت الماركسية الكونية عاشت ذات الأزمة بفارق أنّها حملت شعار التحرّر من المركز الغربي إلا أنّها ـ ويا للأسف ـ وقعت في نفس الإشكالية: الذوبان في كونية أخرى لا تهتم بخصوصية مجتمعاتها.

وأصبحت الماركسية الأساس النظري لغالبية حركات التحرّر في الوطن العربي، وبرغم ادعائها أنّها حاولت الاهتمام بالخصوصية العربية في اعتناقها للماركسية إلا أنّها وقعت في قعر الأزمة عندما تخلّت عن ذاتها أمام الآخر، وأضحت كالنموذج الغربي المستلب بفوارق بسيطة لا غير».

مشاكل الإعلام الديني

١ـ المـــــال:

المال عصب الحياة العصرية، ولا يمكن نكران قوة المال وقدرته على دفع أيّ عمل نحو التقدم والنجاح، ويشهد لنا التاريخ الإسلامي بأهمية عنصر المال حتى في الدعوة الإسلامية، وبالتالي فإنّ التمويل اللازم قضية مهمة لكي يستمر العطاء الفكري.

ولذا فإنّ التمويل للمشاريع الإعلامية أياً كانت -جريدة أو مجلة فكرية أو نشرة شهرية أو...- بحاجة إلى تمويل مالي قوي، ومحنة وسائل الإعلام الإسلامي تتخذ صفة الوضوح في هذا المفصل الصعب، ولا نرى أيّ «إعلامية» إسلامية لا تشتكي من هذه الإشكالية المزمنة.

وللأسف فإنّ غالبية وسائل الإعلام الإسلامي تبدأ قوية في الصدور ومن ثم تقف، والسبب معروف لدى الجميع، المال هو السبب بلا شك، وهذا يستلزم من أصحاب المال والتجار والمجتمع كافة أن يدعموا الإعلام الإسلامي، بل لا بد من تبني هذا الإعلام الفتي كي تستطيع هذه الوسائل الإعلامية مواصلة العطاء الفكري.

ولكنّ المشكلة أنّ المجتمعات الإسلامية تعيش حالة تقليدية في العطاء المالي، فهي تدعم المشاريع التقليدية دون أيّ تفكير، ولكنّها تتوقف مرات كثيرة عندما تفكّر في دعم مشروع إعلامي سواء كان مجلة أو راديو أو تلفزيون إسلامي.

وذلك لأنّها تعوّدت على دعم المشاريع الإسلامية التقليدية كالمسجد والفقراء، وهذا لا يعني أنّنا نرفض هذا الدعم، ولكنا نريد أن نثبت أنّ دعم الإعلام بكافة تفرّعاته، وبالخصوص الوسائل العصرية في هذا الزمن أصبح ضرورة شرعية وعقلية وموضوعية.

فهذه المجتمعات لم تتعوّد التفكير في إقامة قناة فضائية لنشر الفكر الإسلامي وقيمه، والتبشير بقيم ورؤية أهل البيت عليهم السلام، والمشكلة إذا تطورت مجتمعاتنا فإنّها تصبح تقليدية في تطوّرها، وذلك لأنّها تقدس الوسيلة أكثر من تقديس القيم.

٢ـ تطوير الخطاب الديني:

الإعلام الإسلامي يتقدم بوتيرة بطيئة تثير في النفس الأسى، والسبب أنّ هذا الإعلام يعيش محنة خطيرة تتجلى في تقنية الخطاب الديني، فاليوم هناك دوريات كثيرة تتوزع على مستوى العالم الإسلامي محاولة الإسهام في الفكر الإسلامي، وتطويره وتحديثه من جهة الخطاب لا المضمون الأساس، وهذا ما يبشِّر بتنوع ثقافي كانت تفتقده ساحتنا العربية والإسلامية.

وهذه الدوريات على شتى مشاربها وتنوّعاتها واختلافاتها تواجه مهمة عسيرة، وهي التنافس مع مثيلاتها من الاتجاهات الأخرى، التي سبقتها في الصدور بتجربتها القديمة في مجال الأبحاث والثقافة.

ولكن المطلوب من هذه الدوريات الإسلامية أن تحاول الوصول إلى منهجية موضوعية وعلمية مستلهمة من التراث الإسلامي، للوصول إلى حلّ مشكلات المجتمع المعاصر، الذي يكتنفه التغيير والتغريب، وضياع الهوية، واختلال السلوك، وهذه الأوضاع تزداد عبر السنين.

فلا يخفى أنّ التراث الفكري الديني غني من الناحية الكمية، والتي تتمثّل في كتاب الله والسنة الشريفة، ولكنّنا بحاجة إلى باحثين لديهم القدرة العالية لفهم الكتاب والسنة، وتحويل هذا الفهم إلى أفكار ودراسات تخاطب النخبة والمجتمع بشكل حيوي ومرن، كي يكون قادراً على الوصول إلى أكثرية الأمة، وهذا العبء يقع على كاهل علماء الدين وطلبة العلم، والمثقفين الإسلاميين، وأصحاب الرأي في أوساط مجتمعاتنا، وكلّ المهتمين بالشأن الديني.

وبالتأكيد فإنّ ذلك مهمة ليست بيسيرة، ولا تقل صعوبة عن مهمة تطوير الخطاب بشكل تقني، وذلك لأنّه يفترض تقنية عالية في عرض الخطاب الديني، من دون المس بجوهر هذا الفكر، ومن دون تشويه، بحيث نقع في مشكل آخر نتيجة هذا التطوير والترتيب، وإلى أن نصل إلى هذا الهدف تقف أمامنا عوائق كثيرة، لا يمكننا التأكد من التغلب عليها بسرعة وبسهولة، وربما احتاج الأمر إلى سنوات طويلة.

٣ـ الحصار:

يتعرض الإعلام الديني لحصار شديد من قبل دوائر مشبوهة على الصعيد المحلي والخارجي، تقوم هذه الدوائر مجتمعة بإحكام الحصار على وسائل الإعلام الإسلامي بشتى أنواعها المتعددة سواء كانت جريدة أو نشرة أو مجلة أو كتاباً دينياً، معتقدة بأنّ هذا هو الطريق الأفضل للتعاطي مع فكر الصحوة الإسلامية الذي يتمدّد على مستوى الوطن العربي، في حين أنها تدعو إلى الحوار مع الآخر في الوقت ذاته، عبر وسائل إعلامها، وهذه المفارقة تثير الغرابة عند المثقفين ككلّ.

وتدَّعي هذه الدوائر بأنّ الإعلام الإسلامي يثير النزعة الطائفية والفتن، ويشجّع على الإرهاب، ويدعمه إعلامياً، ولذا يجب محاربته وقمعه، وعدم فسح المجال له لينتشر في الأوساط المحلية والعالمية.

وللأسف فإنّ مَنْ يقود هذه الحملة هم مثقفون كانوا يوماً ما في موقع المعارضة، ولقد تعرّضوا إلى قمع السلطة، وهم الآن يستعدونها على أعدائهم في الفكر، وللأسف فإنّ المسؤولين في وزارات الإعلام العربية تأثروا بهذه الدعاية السوداء، واستجابوا بسرعة متناهية.

وما يثير العجب أن تخاف بعض الحكومات من الكتاب الإسلامي والمجلة الدينية، وهي خطاب إسلامي ديني سلمي، ولا تخاف من القنوات الفضائية التي تبثّ الفساد والانحلال، وأقرب مثال هو ما قامت به الحكومة التركية أخيراً من إصدار قرارات تعسفية ضد التعليم الديني، وأغلقت المدارس الدينية ومنعتها بالقانون، في حين أن أسس العلمانية مثل ضمان الحريات تخالف هذا القرار الغاشم، وفي الوقت ذاته تحظى المواخير ودور الدعارة بحرية قلّ نظيرها في استنبول عاصمة الخلافة الإسلامية سابقاً، وكافة المناطق التركية.

وإذا كنا لا نقبل الإعلام الديني السلمي الذي يشجع على التقوى والفضيلة والالتزام والأخلاق السامية، فكيف نقبل أن ندخل القرن الجديد، ونحن بعيدون عن أطر الحرية الإعلامية والثقافية، التي أصبحت من أبسط حقوق الإنسان اليوم؟، يضاف إلى ذلك عدم جدوائية الحصار، فالعالم أصبح قرية واحدة بفضل التطور الحاصل في نظام الاتصالات، والشبكات عبر (الكمبيوتر) مثل (الإنترنت).

٤ـ الإثـــارة:

الإعلام الإسلامي يعتمد على ركيزة مهمة في خطابه الفكري، يراها البعض ثغرة في جداره، ولكنّها تمثل أساساً لا يمكننا التنازل عنه بأيّ حال من الأحوال، وهذه الركيزة هي التوجيه والدعوة لمفاهيم الإسلام وأفكاره الشاملة لمناحي الحياة، وهذا ما يمكن تسميته لدى الآخرين بالوعظ والإرشاد، ولقد أشرنا إلى ذلك في «عوائق المثقف الديني».

ولذا فإنّه يبتعد كلياً عن جذور الإعلام العربي سواء كان على صعيد الصحافة اليومية، أو الكتابة التي تتخذ جانب الدوريات أو الفصليات، فالإثارة التي تُستخدم أسلوباً لجذب القارئ، ويكون ذلك على حساب النصّ أو المادة المقدمة للقراء تكون شبه معدومة في إعلامنا الإسلامي؛ لأنّ الإعلام الإسلامي ينأى عن الدخول في مهاترات إعلامية، أو «قالوا وقلنا»، أو التركيز على إثارات وفضائح إعلامية تجذب الناس، كما هو موجود في بعض الإعلاميات الغربية. بل يحاول الإعلام الديني التركيز على النقد البنّاء، والبناء الثقافي الرصين الذي يخدم الأمة من خلال الإصرار على منهج الدعوة والتوجيه الحكيم، الذي يصبّ في صناعة جيل مثقف إسلامي منفتح

يقبل بالآخر، ولا يتنازل عن قناعاته بفعل الانبهار بالآخر أو الانهزام أمامه.

وبالتالي فإنّ عدم الإثارة مسألة إيجابية تضاف إلى الإعلام الديني، بوصفه إعلاماً ملتزماً، ولكنه يمكن أن يشكّل ثغرة سلبية، وهي تحوّله إلى إعلام جاف، يقدّم وجبات فكرية دسمة وجافة، أو يركز على مسائل سياسية واجتماعية مؤلمة كالفقر والظلم، وقد لا يحظى بانجذاب كبير من عموم المجتمعات.

بعكس وسائل الإعلام الأخرى ذات الاتجاهات المختلفة، والتي تركز على التسلية والإثارة الإعلامية، وسيلةً رئيسةً لجذب الناس، وجعلهم يتواصلون مع الوسيلة الإعلامية، وفي الوقت ذاته تحاول أن توصل أفكارها إلى ذهن الإنسان عبر البرامج المتعدّدة، وهذا يشمل جميع وسائل الإعلام المتعددة سواء كان إعلاماً مقروءاً أو مسموعاً، أو كلاهما معاً «كالتلفزيون».

٥ـ التنوع المطلوب:

إحدى مشاكل الإعلام الديني العويصة هي التنوع المطلوب، فإذا كان الإعلام الديني بعيداً عن الإثارة أو ما اصطُلح عليه بـ«الخبطات الإعلامية»، فهو بالتأكيد يحتاج إلى تنوّع واضح ومتشعب، وذلك لكي يلبي طلبات ورغبات المجتمعات الإسلامية، وبالخصوص في هذا العصر المعقد.

ولا يمكن أن يؤثر الإعلام الديني على المجتمعات المعاصرة بوسائله القديمة، والتي أصبحت تقليدية، بالرغم من أنّها تحمل روح العصر مثل المجلة والجريدة والكتاب، وهذه معرضة لحصار من قبل الدوائر السياسية المشبوهة.

في حين أن هناك الكثير من الوسائل الإعلامية التي لم يطرقها الإسلاميون مثل السينما والمسرح والتلفزيون، وإن كانت هناك محاولات جريئة، ولكنّها تبقى في إطار التجربة، إضافة إلى وسائل جديدة عصرية مثل: القنوات الفضائية، وشبكة (الإنترنت)، كذلك لابد من طرح مجالات أخرى مهمة في الإعلام الديني مثل: الإعلام النسائي، والاهتمام بالطفل، والآداب.

مقدمات مشروعنا الثقافي

ماذا نريد من خطابنا الفكري؟

والى أين نسعى للوصول في طرحنا الثقافي؟!

وما هي مكوّنات ثقافتنا المطلوبة اليوم في ظلّ التغييرات الحادثة؟ وكيف نستطيع الثبات في الساحة الثقافية أمام هذا السيل العرم من الأفكار والمعارف المختلفة؟ وكيف نقاوم التطبيع والتهويد الذي يكتسح ساحتنا الإسلامية في عالم يضجّ بالثورة التقنية؟ في حين أننا

لا نملك إلا وسائل أصبحت بمرور العقود تقليدية إذا قورنت بمثيلاتها من وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة.

كلّ تلك أسئلة حائرة تبحث عن أجوبة حقيقية تبتعد عن حالة الحماس والتعبئة، وتركِّز على أسس واقعية مع مزيد من الروح الوثّابة القادرة على تحمّل المسؤولية التي قبلنا أن نحملها على أعناقنا، مع معرفتنا الأكيدة بثقل هذه الأمانة التي أشار إليها الله في كتابه:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَات وَالأَرْض وَالْجِبَال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[1]، ونحاول قدر جهدنا التغلب على جهلنا لنصل إلى نصف الحقيقة فنعمل بهذا القدر القليل علّنا نوفّق للقيام بدورنا في تبيين المعرفة السليمة والخالية من الشوائب.

هدف الإعلام الإسلامي تسليط الضوء على الحقائق الغائبة عن عقول الأمة بفعل تراكمات تاريخية وفكرية عاشتها أمتنا الإسلامية فسادت فيها تيارات التغريب والتخلف تلعب بها وتوجهها أنّى شاءت، مما سبّب عرقلة تقدم الأمة وتخلّف مسيرة التنمية وإرساء قواعد الاستبداد المهيمن على أرجاء الوطن الإسلامي والذي انعكست آثاره على مختلف الصعد والجوانب بشكل واضح لا يمكن نكرانه.

هذا ما نريده من خطابنا الفكري الذي يستلهم آفاقه من الإسلام الأصيل متمثلين هذه الآية الكريمة: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبيل رَبِّكَ بِالْحِكْمَة وَالْمَوْعظَة الْحَسَنَة وَجَادلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾[2]، نعتمد الحكمة في عرض «بضاعتنا» المعرفية، ونبيِّن أفكارنا ورؤانا بالأسلوب الحسن.

وأمّا ما نسعى للوصول إليه فهو محاولة رفد الساحة الثقافية بفكر إسلامي يتطلع لحلّ مشاكل هذه الأمة التي تكالبت عليها المشاكل والمصائب من كلّ جهة، نتوجّه بخطابنا الفكري إلى كلّ مهتم بالشأن الثقافي من دون الاعتراف بالتقسيم الحاصل في العالم من جهة النخبة/ الناس؛ لأنّنا نعتقد بأنّ رسالة الإعلام الإسلامي يجب أن تصل للجميع لنتحاور على أسس موضوعية وعلمية دون الإصرار على منهج امتلاك الحقيقة الكاملة، مع قناعتنا الأكيدة بصوابية ما نطرح في خطابنا الفكري.

وبذلك نصل إلى كلّ المهتمين بالثقافة والفكر الذين يتطلعون إلى الخطاب الإسلامي ويحاولون فهمه، وبهذا يمكننا المساهمة الفعالة في بناء النخبة الإسلامية، وكذلك للقارئ العادي الباحث عن الفهم الإسلامي الأصيل في ظلّ التدافع المعرفي اليوم.

مكوّنات الثقافة التي يجب أن تُنشر على صفحات الإعلام الديني، لابد أن تتقاسم مع فكر الصحوة الإسلامية الهموم والتطلعات، كما يجب أن تحظى بتميّز في جوانب العقيدة والتاريخ، وذلك عبر طرح عميق لتعاليم أهل البيت عليهم السلام، ومحاولة إيضاح جوهر هذه

التعاليم وتحويلها إلى مفاهيم وأفكار قابلة للتطبيق في هذا العصر.

إنّ هذه المقدمات الثقافية المراد طرحها هنا تمثل النقاط الرئيسة في المشروع الثقافي المراد تقديمه ولا تمثل كلّ شيء في المشروع، وذلك لأننا قرّرنا سابقاً أنّنا لا نملك الحقيقة الكاملة، بل نبحث عنها بعقولنا الصغيرة، والحقيقة الكاملة هي: الرسل والأنبياء وأئمة أهل البيت عليهم السلام، وليس غير المعصوم مهما بلغ علمه وتقواه، وذلك لأنّه معرض للخطأ والنسيان والجهل.

ويمكنا تحديد المشروع الثقافي في التالي:

١ـ هموم الصحوة الإسلامية وفكرها المتميز:

منذ منتصف الستينات من هذا القرن شهد وطننا الإسلامي صحوة إسلامية وعودة نحو الإسلام، وقد يكون سبب ذلك تضافر جهود دعاة التغيير والإصلاح بشتى انتماءاتهم المذهبية والجغرافية، إضافة إلى الفشل الذريع الذي لحق بالفكر المتغرّب السائد آنذاك.

ومن المفترض تقديم فكر هذه الصحوة ورصد همومها المتعددة، وذلك لتغيير الفهم الخاطئ الناشئ من قبل الغرب، وبعض أبنائها الغافلين عن فكرها الأصيل، وبالرغم من العوائق التي تواجه الحالة الإسلامية من قبل الغرب أو النخب السياسية، وذلك لأنّنا مقتنعون بأنّ هذه الصحوة بما لديها من أفكار وقيم تستطيع تقديم الحلول ومدّ يد العون لحلّ مشاكل الأمة وأبنائها، إضافة إلى طموحنا في تطوير هذه الصحوة وأفكارها من خلال الاهتمام بحالة النقد البنّاء، وتوضيح الحقيقة لدعاة النقد الهجومي غير المبرّر من داخل الدائرة أو خارجها.

٢ـ نقد الفكر الخاطئ بكل أبعاده:

إنّ نقد الفكر الفاسد الذي أوجد في أمتنا روح الهزيمة والعبثية واللهو عندما تسلل إلى عقلها، ومحاولاتنا النقدية لهذا الفكر وتياراته المختلفة في التقسيم، المتفقة في المضمون ـ ضرورة شرعية في هذا العصر.

ولابد أن يكون هذا النقد معتمداً على قاعدة دينية صلبة، قائمة على الحوار واتبّاع الأساليب الموضوعية للوصول إلى هدف حقيقي، منطلقين من الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ..﴾.

٣ـ قضايا المؤسسة الدينية:

بلا شك: إنّ المؤسسة الدينية سواء كانت في الأزهر أو النجف فإنّها أدت دوراً كبيراً في الحفاظ على الفكر الإسلامي بالرغم من المصاعب والعوائق التي واجهتها المؤسسة

الدينية وما تزال، ولذا نرى من واجبنا الاهتمام بقضايا هذه المؤسسة العلمية من خلال تطوير مهامها الحضارية ونقد مناهجها وتقديم أطروحاتها الرصينة، وبالخصوص إبداعاتها الفكرية والفقهية والتاريخية التي تعطي للأمة دافعاً لتطوير فكرها حسب ما يلائم الزمان والمكان.

٤ـ الاهتمام بالقضايا الإسلامية:

لابدّ من الاهتمام بمصادر التشريع (القرآن - السنة الشريفة)، وذلك لابتعاد المسلمين عن هذه المصادر مما سبّب الجهل بهذه القيم والتعاليم الحقة، ولابدّ من تسليط الضوء على شؤون المسلمين وبالخصوص الجاليات الإسلامية المبعثرة في العالم والتي تمثل الإسلام الغريب..

هذه مقدمات مشروعنا الثقافي التي تتقاسم الهموم والتطلعات بالنسبة للأمة الإسلامية، وقناعتنا أن هذه المقدمات تستطيع أن تشارك في إثراء الفكر الإسلامي وتقديمه للجمهور، ولا ندّعي أنّها قادرة على الحلّ الكامل والشامل، بل هي خطوة في طريق الصواب.

ويبقى هدفنا الأساس هو إنهاض الأمة الإسلامية بثقافة حية قادرة على إرساء قواعد الوحدة والحرية والعدل والوعي في روح أبنائها، ومحاربة ثقافة التجزئة والتبرير التي كُرِّست في دواخلنا بفعل التخلف والجهل الذي ورثناه منذ زمن بعيد ولم نستطع التخلص منه.

لأنّ أيّ مشروع فكري لا يستهدف إنهاض هذه الأمة المنكوبة، ما الفائدة من ورائه غير ترف الفكر وضياع الوقت؟!

والمشروع النهضوي البديل لا بدّ أن يركز على الهوية الحقيقية لهذه الأمة وهو «الإسلام»، ويبقى الاختلاف في فهم هذه الهوية موضوعاً اجتهادياً لا يضر بأي مشروع.

الهوامش:

(١) سورة آل عمران: آية / ٨٣١.
(٢) سورة الأعراف: آية /٣٠٢.
(٣) سورة النحل: آية / ٩٨.
(٤) سورة الأحزاب / آية: ٢٧.
(٥) سورة النحل / آية: ٥٢١.